نظام الحب والبغض — تابع ما قبله

(حب القوة)

— رابطة الدين —

قد بينا هنا لكم أن رابطة القومية لا يعدو نفعها قدراً طفيفاً كأن يعين الرجل رجلاً من عترته على رجل من عترة أخرى ، وأن هذا القدر لو لبث عليه الانسان لما تميز على الحيوانات التي ينهش بعضها بعضاً ، وهنا نبين كيف حدثت هذا النوع رابطة أخرى ، وكيف أورثته قوة عظمى ، وسارت به في الارتقاء مسافة كبرى .

أما التاريخ فلا يعطينا هذا البيان لأنه انما حدث بعد حدوث هذه الرابطة ، فيا ترى هذا أخذه مما قرأناه في طبيعة الانسان وعناية فاطره به .

(تأسيس)

ان من المحقق المحسوس ان الاقاليم والاعمال والاعمار تحدث في أهلها ثم في أعقابهم من الصفات الجسدية ما يجعل بينهم وبين الآخرين فروقاً تبتدئ صغيرة ثم تكبر ، فهذه من جملة الاسباب التي أوجبت — على التمادي — الفروق التي بين ابدان البشر ، وليس من صددنا الآن التصدي لذكر الاسباب الاخرى بل نكتفي بهذه لندعم بها مقدمة أردنا اثباتها هنا وهي أنه كما تتفاوت الابدان لاسباب تتفاوت الافكار لاسباب ، (وما أمثال الرجال تفاوتا)

ومن المحقق المحسوس والمعقول ان بين القوى الثلاثة التي في الانسان ارتباطاً فالقوى الظاهرة مسخرة للنوعين الآخرين من قواه نعني بهما قوة الادراك — التي نسميها الفكر أو العقل — وقوة الطلب والارادة — التي نسميها القلب — وأننا نجد أن العقل والقلب يكونان على مبلغ البدن من الصحة والاعتدال والقوة ، ثم نجد لصحة البدن أسباباً منها صحة الادراك واعتدال الارادة .

هذا الارتباط دقيق جداً وفيه شبه الدور الذي يعرفه علماء التصور والتصديق (المنطق) ولدقته خفي على أكثر الناس إنافة كل قوة على أختها في التأثير .

فمن الناس من ظن ان صحة البدن هي التي تنتج صحة الفكر والارادة ، وقد نسوا أن أصح البهائم بدناً لا تفوق بالفهم أضعفها ، ونسوا أن الذين ليس لهم نصيب كبير من الحياة النوعية —

كرعاة الابل — أقرب الى صحة الابدان منهم الى صحة الافكار ونحن بهذا الاحتجاج لم نرد تفنيد ذلك الرأي من كل الوجوه بل من وجه الجمود على هذه الجهة وحدها .

وآخرون ظنوا ان الاصل صحة العقل فهي التي تنتج صحة البدن والارادة . وقد نسوا ان أقوى الناس عقلا لا يفوق بصحة البدن ضعاف الادراك وبصحة الارادة ضعاف الابدان .

كل هذه الظنون نشأت من الشعور بذلك الارتباط ولكن لم يرافقها التدقيق فسميت بالارتباك . والظن السديد الموطود هو ان الارتباط موجود ، والدور مفقود ، والامر دائر على فضل طفيف بينها . فهبة القلب للعقل والبدن تنيف إنافة قليلة على اتهابه منهما . وهبة العقل للبدن تنيف قليلا على اتهابه منه ، ثم وراء الكل للعقل والقلب جاذبان ضدان مستتران قد أوجدهما باري الكل محكا للعقول ليخلص الطيب كما يخلص النور من الغثاء الاحوى . ولا يسئل من خلق الاضداد هما خلق . سبحانه هو المنزه وحده عن الاضداد والانداد

هذا ما ظهر لنا من كيفية الارتباط بين قوى الجسد الظاهرة والباطنة ثم علاقتها بالامرين الغيبيين وهو يعرّفنا أنه مهما يكن للامور الحسية من تأثير فان وراءها أمورا غيبية . وانه مهما يكن للامور الغيبية من تأثير فان للامور الحسية دخلا وشركة . وتثمر هذه المعرفة احترام الاسباب الظاهرة أدبا مع من لم يوجدها عبثا وتشوّف النفوس الى ما وراء المعارف الحاضرة وبمثل هذا كان رقيّ النوع في المعارف .

ويؤخذ من هذا ان أوائل علوم البشر كلها الهامية وحيية وأن الهام كل فرد يكون بحسب قواه .

ومعنى الالهام او الوحي في اللغة الالقاء في الروع أي الاخطار على البال . بيد أنه يكون على ثلاثة أنواع يختلف تعريفه اصطلاحا بحسبها .

النوع الاول : عام وهو ما تكون به هداية كل نوع لما يصلح له قوامه كالذي نراه في فطرة آكلة العشب من اجتناب الاعشاب التي لا تلائمها من غير معلم ومن غير تجربة سابقة كالخيل والبقر والانعام . وكالذي نراه من اتخاذ كل نوع من الانواع المتعادية أسبابا للدفاع والهجوم من صياصي وخدائع . اعتبر بذلك من صغار الحشرات

الى كبار السباع . وكالذي نشاهده من استشفاء البعض منها ببعض الاعشاب كالسنانير والكلاب . وكالذي نراه من نظام الحيوانات المنقادة لرئيس منها كالنحل والنمل .(*)

والنوع الثاني : خاص وهو ماتكون به هداية هذا النوع الانساني في حياته النوعية وشؤونه الخصوصية . ومن هـذا الباب الرجاء الفجائي وأوائل الاختراعات على اختلافها . (**)

والنوع الثالث : أخص وهو ماتكون به هداية بعض الافراد في معرفة شئ من عالم الغيب الذي من نحوه وردت نواميس عالم الحس فكان بهما قوامه ونظامه ***

ويقابل هذه الهدايات في النوعين الاخيرين اضلالات تأتي من جانب أحد الضدين الجنّيين المتجاذبين لعقل الانسان وقلبـه ، حتى يصعد ذو هدى من النوع الاخير الى أعلى عاليين ، وينزل ذو ضلال ينما الى أسفل سافلين (****)

ومن ثمة لايكون هذان النوعان الاخيران لافراد أهليهما على وتيرة واحدة والا لما كان التفاوت المكتوب . وانما يكون أهلوهما متفاوتين على مقدار قابلياتهم في الانتهاب .

فمن الناس من يتعلم من معلم صنعة ثم يوحى اليه ان يجرب تجربة لم يتعلمها ليزيد في تلك الصنعة شيئاً جديداً ومنهم من لايوحى اليه ذلك أو يوحى اليه ان ينقص منها .

ومنهم من يوحى اليه ان يبتدئ ويخترع أمراً لم يكن من قبل ولم يعلمه اياه معلم ثم يوحى اليه ان يعلمه الغير أو ان لايعلمه .

ومنهم من يلهم علم أمر سيكون (١) ومنهم من يأتي في روعه ان ينفع غـيره

(*) شاهد هذا النوع من القرآن المجيد « وأوحى ربك الى النحل »

(**) الشاهد : ـ وأوحينا الى أم موسى ـ الآية : . . . .

(***) الشاهد : ـ انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ـ الآية

(****) الشاهد : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً » (١) ان علم كل شئ من الامور الغيبية لايكون لاحد من البشر كما لايكون العلم لاحد منهم بكل شئ من الاشياء المحسوسة . أما الامور الخفية التي هي من عالم الحس فالعلم ببعضها ليس بغريب بالنسبة الى فطر هذه الفطرة الغريبة . وانما الغريب العلم بالامور التي هي من عالم الغيب فهذه هي التي يوحى بعضها للرسل المطهرين .

ومنهم من يلقي اليه ان يضر الغير ومنهم من يشرح صدره لتصديق الملهم ومن لا يشرح صدره وهكذا .

هذا وربما طالبنا مطالب بتسمية ذينك المتجاذبين المجتبين فاقول انه قد سمي من قبل جاذب الخير والسعادة والفضيلة بالروح الطاهر (القدس) ، والامين ، وعون الله ، وسعير الله ، ونصر الله ، وأمر الله ، وروح الله ، وبالنور ، والشفاء ، وكل جميل ، وسمي جاذب الشر والشقاء والرذيلة بالروح النجس (الرجس) واللعين ، ولعن الله ، وغضب الله ، وخزي الله ، وبالظلام ، والمرض ، وكل قبيح .

ولكني أحب الذين يدركون خواص المسمى اولا ثم يلتفتون الى الاسماء فان وافقت المطلوب كما هنا والا التمسوا المطابق وأكره الذين يلتفتون للاسماء اولا ثم يتجافون عن الخواص التي ربما لا تظهر لهم من الاسماء ، أو يتجافون عن أسماء لم يسموها لخواص كانوا قد سمعوا بها .

بناء

بناء على هذا الاساس الذي مكناه تمكنا أقول :

إن البشر لما تفاوتت أبدانهم وعقولهم وقلوبهم للاسباب الظاهرة والباطنة تفاوتت محبوباتهم ومشتهياتهم ، وحرص كل منهم على مشتهاه ، واتخذ إلهه هواه ، وافق ذلك المشتهى لغيره أو لم يوافق ، طابق ذلك التأليه للانسانية او لم يطابق ، فتكونت بينهم العداوة والبغضاء ، وأمسى القرباء بعداء ، وزين للاقوياء منهم حطم الضعفاء ، وماذا تكون عاقبة الاقوام ، اذا ألهوا الحكام ، واعبدوا بدم الحسام ، الا يستجير الضعاف ويجأرون ، الا يسرون بطلب الناصر ويجهرون ، فمن ذا الذي يجيب دعوة المضطرين ، أفتسمعها الاحجار ، أفتستجيب لها الاشجار ، أفتفهمها الحشرات ، أفتلبيها العجماوات ، أفترحم لها نفوس الذين من نارهم تضج ، ومن غبارهم تعج ، لمن يشكون ، أتسمعهم الكواكب وتبصرهم ، أتجبر كسرهم وتنصرهم ، أتقدر ولا تريد ، أم كل ذلك عنها بعيد ، ؟ بحل يا عالم الغيب فليس الامر لذلك يرسل الخالق هذا المدد الذي محتاجه كل عوالم الارض خاصة ، وأشرفها منزلة وأعظمها قوة ، وأكرمها منزلة .

ألم تسبق عناية الفاطر ان تمد هذا المصنوع البديع مما لا تراه الابصار ، ولا تسمعه الآذان ،

ولا تبلغه الأذهان، فما هو ذا المجد حاجة هذه، عند تلك المحسوسات، من الجمادات الأرضية فصاعداً إلى نيرات السموات، فهل خبأ له هذه الحاجة إلا في خزائنك يا عالم الغيب، تجل لنا بأنوارك، أشرق علينا بأسرارك، متعنا بجمالك، هبنا من كمالك،

بلى قد سبقت عناية الفاطر وهذا برهانها، وظهرت منحته وهذا سلطانها:

إنه كان رجال مطهرون مصلحون يرشدون الأقوياء إلى العدل الذي ينفعهم أنفسهم وغيرهم، ويرشدون الضعاف إلى أسباب القوة التي يدفعون بها ظلم الظالمين.

وعلى هذا النحو أسسوا أول ميزان في الأرض توزن به ذات كل بالسوية، وتعرف به حدود القوى، فيكون الرجاء والتقوى، «فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا» هي القريبة التي لها بعد «فَإِنَّ الْجَحِيمَ (على أنواعها الحسية والمعنوية) هِيَ الْمَأْوَىٰ» «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ (الذي يربي غيره كما يربيه، ويقويه كما يقويه) وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ (على أنواعها الحسية والمعنوية) هِيَ الْمَأْوَىٰ».

تالله ما خلق سدى، وإن للحظة الدنيا غداً، إن هذا قول من دعوا إلى الهدى، في كل الأمم والقرى، من أول الأزمان حتى المدى.

هذا الذي أشرنا إليه هو مبدأ تاريخ الدين القويم، ولزيادة التوضيح نقول:

لما كان الفساد يكثر كان رجال ممن تغلب فيهم الروح الطاهرة يقومون للإصلاح ويبرهنون للناس على أنه إذا لم توضع للمطالب والمحبوبات حدود ويخضعون لها يفسد النظام ويفني بعضهم بعضاً من حيث لا يستفيد آخر من بقي الكل. وكان الناس منهم من يقبل ومنهم من يعرض، إذ لو قبل الكل لمن أصلح لما كان اليوم من فساد قط. ولو قبل الكل لمن أفسد لما كان اليوم من نظام قط. بل قد كان أتباع المفسدين أكثر لأن الفرق بين المصلح والمفسد كبير هو فرق ما بين الضدين، وإذ كانت درجة المصلح عالية كان الأقربون منها أقل من الأبعدين. ولولا أن للإصلاحات قوة تؤيدها لتلاشى كل إصلاح قام به مصلح منذ الدور الأول حتى هذا الدور. ولكن تلك القوة المؤيدة هي التي تقوم المصلح ومن يقاربه مقام الكثرة، فقد تكون عظيمة ويطيف من الإصلاح بنفوس المفسدين خطرات موقظة من عجمة تجذب في مقامهم وترجعهم عن غيهم. وقد تكون ضعيفة ويطيف بنفوس المفسدين طائف

من الروح الخبيث فيهلك المفسدون دعاة الاصلاح ومتبعيهم . ولكن لايلبثون بعدهم الا قليلا حتى تبيدهم طبيعة الفساد لتقوم الحجة فيما بعد .

وهذه خلاصة هذا الامر : (١) انه في القديم فسدت العشائر (٢) فقام في كل قوم مصلح منهم . (٣) فلم يؤمن للاصلاح الا قليل (٤) وزاد المفسدون (٥) فأبادت طبيعة الفساد من أبادت منهم من الطاغين (٦) واعتبر آخرون (٧) ثم نسوا ماذكروا به فأصابهم ماأصاب الاولين (٨) لتكون آية في الآخرين (٩) ومابرحوا حتى تواتر الهادون (١٠) وعلا شأن الميزان والوازنون . (١١) وخسر هنالك الطاغون والمطففون . « الَّذِينَ اِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَاِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » .

هذا هو تاريخ هذا الامر فيما قبل التاريخ . واما من بعد ذلك فلكل أمة كتب منكم من يعلمها تقص عليهم أنباء مصلحين عرفوهم ولم تعرفهم أمة أخرى .

والجدير بالذكر بعد كل ماتقدم أن الدعاة الهادين الذين قاموا في أقوامهم بألسنتهم قد أثمر عملهم من بعد حين ثمرة كبيرة جدا وهي ربط أقوام كثيرين مختلفي الانساب واللغات بمبادي واحدة يدينون جميعا بها حتى يكون اسم امامهم فيما بينهم جميعا مقدسا بل حتى يكون حلف الشغاف من أفئدتهم ، وعمدة الحلف والاقسام في ألسنتهم .

مثل هذه الحال من قوم أو أقوام ، تقوي بينهم أواصر القلوب ووشائج الافكار وهي أهم من أواصر الابدان ووشائج الارحام

هذه هي القرابة التي تقرب البعيد ، وتحبب بالغريب ، وتحمي الضعيف ، من كيد القوي . هذه رابطة الدين ان سألتم عن اسمها ، واحدى مراقي الانسانية ان سألتم عن رسمها .

وقد عرفتم الآن كيف كان كونها ، وكيف صار لونها . وأوصيكم أن لاتجمدوا وتظنوا أن وحي الانبياء هو من قبيل ماذكرنا فقط . بل هو من أفق آخر أعلى . أتينا كم من أجله بالاشباه والامثال . وأريناكم في مراقي الكون الانساني أسفل سافل وأعلى عال . ومن لم ير ينابيع العيون الصغيرة فربما لايعرف كيف تتفجر الانهار العظيمة من الارض وقد يظنها من السماء . وانما الفرق بينها وبين الصغيرة بحسب المدد فتفكروا وتذكروا .

ومعنى الدين الطاعة لتعاليم ويتكون من هذه الطاعة العمومية قوة يكون عظمها على مبلغ أهلها من قوة الابدان والعقول والقلوب وكثرة الافراد . وكيف ما كانت فان هذه الرابطة تقضي ان يكون الكل في أنفسهم وامام غيرهم كرجل واحد . ويظهر ان من مقتضياتها ايجاد ثانية كبرى تتضاءل بل تتلاشى فيها العصبية حتى لا يكون لامة غير . ولكن هذا الاتم من جهتها حتى يعلم افراد كل أمة حق العلم ما هو الجوهر الحقيقي للدين القويم . ويعملوا حق العمل بما يطبع في النفس ذلك الجوهر المطلوب .

وقد استبعد هذا قوم فحكموا ان الاديان لم تزد الناس الا تعادياً وزعموا انها لم تك الا زيا آخر من أزياء رابطة القومية مستدركينا قليلا بما هذبت فيه يد التجارب وفهموا منها تضييق الدائرة على الناس في تصوراتهم وفي عاداتهم وأعمالهم بكثرة ما يأتيهم مؤسسوها من فروع الامر والنهي . والقطع والجزم . في مسائل يحتاج في ادراك اسرارها الى تبصر عقل سليم وتروي ارادة معتدلة . ويغرق هؤلاء بما تصف ألسنتهم وأقلامهم من الاديان حتى يبعدوا عن الحكمة وهم يظنون القرب منها . ويضلوا الحقيقة وهم يرون انهم وجدوها .

ولذلك ناسب ان نأتي في نبذ تالية بما يفند من مزاعمهم ونبين لهم ولغيرهم منشأ هذه المزاعم ليتفكر من يتفكر ويتذكر من يتذكر .   ثمة بقية   (ع ٠ ز)

بلرم — صقليه

٣

(مسينا ومقبرتها)

نسيت ان أضع في جانب المقابر مقبرة مسينا وهي مقبرة في الجنوب الغربي من المدينة وانك اذا قلت لعقلي : اني ذاهب الى مسينا : يقول لك في الحال : لا بد ان ترى المقبرة : وهي جزء من المدينة تحسب مدينة بنفسها فيها مدافن للامراء والاعيان مبنية على أجمل نظام وأقربه الى السذاجة وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم . وطريقة الدفن في تلك الاماكن تختلف فبعضها على الطريقة المعهودة من وضع صندوق الجثة تحت الارض وبعضها بوضعه في صندوق ضخم كبير لا يمكن سرقته على ظهر الارض ، وبعضها في بيوت تفرض في عرض الجدر المريضة